

ما بعد بلاغة الصورة: تحولات الأداء الحجاجي في الخطاب القرآني
قراءة تداولية نقدية في كتاب "الحجاج في القرآن" لعبد الله صولة

Post-Image Rhetoric: Transformations of Argumentative Performance in Qur'anic
Discourse – A Critical Pragmatic Reading of Abdullah Soula's "Argumentation in the
Qur'an"

محمد بوعمامة

جامعة باتنة 1

mohamed.bouamama@univ-batna.dz

حفصة حجيح *

جامعة باتنة 1

مخبر الشعرية

hafsa.hadjidj@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2026-05-11

تاريخ الإرسال: 2025-11-09

ملخص:

يقدم هذا المقال قراءة تداولية نقدية لمقاربة عبد الله صولة في كتاب "الحجاج في القرآن"، مستنداً إلى منظور "ما بعد بلاغة الصورة" بوصفه إطاراً تحليلياً يُبرز التكامل بين البنية الجمالية والوظيفة الحجاجية.

تنطلق الدراسة من المنهج التداولي في تحليل المفاهيم المركزية وإعادة قراءة الصورة القرآنية، وتُظهر النتائج أن الصورة القرآنية تتجاوز وظيفتها التزيينية إلى أداء حجاجي إقناعي يتأسس على التفاعل بين البنية الإيحائية ووعي المتلقي، مع تأكيد حاجة المقاربة الصولية إلى تطوير أدواتها التحليلية.

الكلمات المفتاحية: صورة قرآنية؛ حجاج؛ تداولية؛ ما بعد بلاغة الصورة؛ تحولات الأداء الحجاجي.

The abstract:

This article offers a critical pragmatic reading of Abdullah Soula's Argumentation in the Qur'an, adopting "post-image rhetoric" as an analytical framework that highlights the integration of aesthetic structure and argumentative function.

The study applies a pragmatic methodology to analyze Soula's central concepts and re-examine the Qur'anic image. Findings reveal that the Qur'anic image transcends its ornamental role to perform a persuasive argumentative function, grounded in the interplay between suggestive discourse structures and recipient

*- المؤلف المراسل.

ما بعد بلاغة الصورة: تحولات الأداء الحجاجي في الخطاب القرآني
قراءة تداولية نقدية في كتاب "الحجاج في القرآن" لعبد الله صولة

awareness. While Soula's approach pioneered the application of argumentative theory, it requires further development through contemporary pragmatic tools.

Keywords: Qur'anic Image; Argumentation; Pragmatics; Post-Image Rhetoric; Transformations of Argumentative Performance

مقدمة: عرفت الدراسات البلاغية العربية في العقود الأخيرة تحولات عميقة في مناهجها واتجاهاتها؛ إذ تجاوزت البلاغة حدودها الكلاسيكية التي حصرتها في الزخرف نحو بلاغة تفاعلية وظيفية تفتتح على التداولية وتحليل الخطاب والحجاج بغية الكشف عن آليات التأثير والإقناع في البنية اللغوية، وقد كان الخطاب القرآني بما يختزنه من طاقة بيانية وحجاجية استثنائية من أبرز مجالات هذا التحول؛ إذ مثل ميدانا خصبا لإعادة قراءة البلاغة في ضوء المفاهيم التداولية الحديثة.

وفي هذا السياق تبرز مقاربة "عبد الله صولة" في كتابه "الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" بوصفها محاولة رائدة لتطبيق الرؤية الحجاجية على النص القرآني دون إغفال خصوصيته الجمالية، فقد سعى "صولة" إلى الكشف عن العلاقة بين البنية الأسلوبية والفاعلية الإقناعية؛ مبينا أن الحجاج يشكل مكونا جوهريا في الخطاب القرآني تتبوأ فيه الصورة مكانة محورية لما تمتاز به من قدرة على تجسيد المعاني، وإثارة المتلقي، وتحقيق التأثير.

غير أن المشروع الصولي على الرغم من أهميته ما يزال بحاجة إلى قراءة نقدية تعيد النظر في بعض أدواته التحليلية، وتختبرها في ضوء المقاربات التداولية الحجاجية المعاصرة قصد الوقوف على مدى قدرتها على تفكيك دينامية الصورة في أبعادها المختلفة ورصد تحولات أدائها الحجاجي داخل السياق القرآني، ومن هذا المنطلق يتأسس هذا المقال ضمن منظور "ما بعد بلاغة الصورة" بوصفه أفقا تداوليا حجاجيا يربط بين الجمالي والحجاجي في بنية الخطاب.

وتنطلق الدراسة من الإشكالية المركزية الآتية: إلى أي حدّ تسهم مقاربة "عبد الله صولة" في الكشف عن تحولات الأداء الحجاجي للصورة القرآنية، وكيف يمكن تطوير هذه المقاربة ضمن تصور تداولي حديث يُبرز فاعلية الصورة في إنتاج المعنى والإقناع؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة الآتية:

- ما المفاهيم والآليات التحليلية التي اعتمدها صولة في تتبع بنية الصورة القرآنية؟

- كيف تتجلى فاعلية الأداء الحجاجي وتحولاته في مستويات الصورة الثلاثة: المادة، الشكل، والوظيفة؟

- ما هي محدوديات المقاربة الصولية، وكيف يمكن تجاوزها؟

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل الرؤية الحجاجية لعبد الله صولة وتحديد موقع الصورة ضمن مشروعه، وتتبع تحولات أدائها الحجاجي وصولاً إلى المسألة النقدية لهذه الرؤية في ضوء أدوات التحليل التداولي المعاصر.

وتعتمد الدراسة منهجاً تكاملياً يستثمر المقاربة التداولية لتحليل تفاعل الصورة ضمن سياقها الخطابي، والمقاربة الحجاجية لتفسير آليات التأثير والإقناع، والمقاربة النقدية لتقويم تصور صولة وتطويره. وقد ارتكز التحليل على "الباب الثالث" من الكتاب، مع إعادة قراءة الصورة القرآنية في ضوء المفاهيم الإجرائية التي اقترحتها الدراسة.

1- المفاهيم المؤسسة لمقاربة "عبد الله صولة" في دراسة الصورة القرآنية:

يستند مشروع "عبد الله صولة" الحجاجي في مصنفه "الحجاج في القرآن" إلى رؤية لسانية تداولية تسعى إلى المواءمة بين البلاغة العربية القديمة ومفاهيم الحجاج المعاصرة، وينطلق هذا المشروع من تصور شامل للخطاب القرآني بوصفه نسقاً لغوياً مفتوحاً تحكمه علاقات دلالية وتداولية متداخلة، وتوجه بناءه مقاصد حجاجية تتجاوز ظاهر التركيب اللفظي لتبلغ عمق الفعل التواصل الإقناعي، وقد حرص "صولة" على التوظيف الإجرائي الواعي للمناهج اللسانية الغربية مع تكييفها بما يخدم تحليل النص القرآني ويحافظ على خصوصيته، ومن أبرز المفاهيم التي شكلت مرتكزاً نظرياً في مشروعه مفهوم "النظم" كما بلوره "عبد القاهر الجرجاني"؛ إذ أعاد "صولة" توظيفه في أفق تداولي حجاجي يجعل من العلاقات بين المعاني محوراً لفهم انسجام الخطاب وتماسكه، فالنظم عند "الجرجاني" لا يقوم على ترتيب الألفاظ في ظاهرها، بل على "نظم المعاني فيما بينها، وتأليفها على النحو الذي يقتضيه العقل"¹، وهو ما يعني أن جوهر النظم يكمن في مراعاة السياق والمقام

¹ - ينظر، عبد القاهر الجرجاني (1952)، دلائل الإعجاز، ط5، تصحيح ونشر محمد رشيد رضا، دار المنار،

ومقتضى الحال، وقد وظف المؤلف هذا المفهوم لإبراز البنية الحجاجية التي تشكل الخطاب القرآني مما يؤسس لمبدأ التكامل بين الجمالي والحجاجي في تحليل النص.¹

يتضح مما تقدم أن الإطار المنهجي للكاتب ينبني على التكامل بين التحليل البلاغي الكلاسيكي، والتحليل التداولي، والتحليل الحجاجي الذي يوضح كيف تحدث الصورة أثراً في المتلقي من خلال بنيتها ووظيفتها وسياقها، ولفهم منهج "صولة" حري بنا توضيح المفاهيم المركزية والأدوات التحليلية التي وظفها في مقارنة الصورة القرآنية.

1.1- البنية الحجاجية للخطاب القرآني: الجمهور- المقاصد:

¹ - ينظر، عبد الله صولة (2007)، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي،

بيروت، ص 558، 608.

يؤسس "عبد الله صولة" رؤيته للحجاج في الخطاب القرآني انطلاقاً من أطروحة مفادها أن القرآن خطاب، وكل خطاب هو في جوهره فعل تواصل حجاجي غرضه التأثير والإقناع.¹ فالقرآن كتاب إصلاح²، والحجاج بطبيعته "عمل غرضه دائماً أن يغير وضعاً قائماً"³، من ثم فإن القرآن خطاب حجاجي خالص بحكم وظيفته الإصلاحية التغييرية. ويتوجه هذا الخطاب نحو جمهورين: الخاص أو "الضيق"، وهم المخاطبون الأوائل كالمؤمنين، والكفار، والعام أو "الكوني" وهو المتلقي المتجدد زمانياً ومكانياً⁴، عبر آليات تنزع نحو العقل الأعلى وتعتمد الموافقات والمخالفات⁵، مما يمنحه قوة إنجازية تتجاوز التبليغ إلى التأثير الفعلي.⁶

وتتمحور مقاصد القرآن الحجاجية حول محاور أساسية: الإصلاح والتغيير، ونبذ الإكراه لصالح الإقناع العقلي⁷، وهو ما يتجسد في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256). ويتجلى هذا الحضور الحجاجي في تنوع الأساليب (التشجيع، المحاججة، التكذيب...) ضمن بنية حوارية توظف استراتيجيات كالخطاب المباشر (قل)، (يا أيها الناس)، وحكاية الأقوال، مما يجعل من القرآن فضاء تتحاور عليه الذوات وتتجادل ويحاج بعضها بعضاً.⁸ وبهذا، يندمج البعد البلاغي في جوهر الوظيفة الحجاجية؛ حيث تغدو الصورة القرآنية آلية فاعلة في بناء المعنى وتعديل المواقف من خلال التجسيد والإقناع.

2.1- مفهوم الصورة: من البلاغة الزخرفية إلى التفاعل الحجاجي

¹- ينظر، المصدر نفسه، ص 41، وينظر: Emile Benvenist(1966), problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard paris, p.246

²- ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 43.

³-Perelman, Chaïm et Lucie Olbrechtstyteca(1992), traité de l'argumentation la nouvelle rhétorique, Edition de l'université de Bruxelles, 5éd, p.73.

⁴- ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 43-44.

⁵- ينظر، المصدر نفسه، ص 618، وينظر: Perelman et tyteca, o p. cit, pp.40-59.

⁶-Austin, john(1970), Quand dire, c'est faire, par Gilles lane, Editions du Seuil, paris, p.124.

⁷- ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 44.

⁸- عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 42.

يؤصل "عبد الله صولة" مفهومه للصورة القرآنية ضمن منظور حجاجي تداولي ينطلق من تعريف "فيتغنشتاين" (Wittgenstein) بأن الصورة "هي أن تشاهد الشيء على هيئة شيء آخر"¹، ويربط هذا التصور الفلسفي بالموروث البلاغي العربي الذي اختزل مفهوم الصورة في كونها استبدالاً (مجازاً) للمعنى الحقيقي بتعبير تصويري²، لكنه يتجاوز هذا التصور الاستبدالي البسيط إلى رؤية ديناميكية ترى أن التغيير يكون في الشكل الذي يقدم به المعنى³ ويُعد التشبيه والتمثيل في هذا السياق آليتين مركبتين في بناء الصورة الحجاجية؛ إذ يرى "صولة" مستنداً إلى تحليل "الزمخشري" أن كل تمثيل هو في جوهره استبدال دائم؛ لأن الصورة لا تقدم الفكرة إلا بعد تحويلها إلى مشهد محسوس⁴.

ويعرض "صولة" كيف وسع القدماء مفهوم الاستبدال ليشمل الكناية والمجاز المرسل إلى جانب الاستعارة، فهذه الأشكال جميعاً -حسب رأيهم- تخضع لمبدأ "الاستبدال التداولي"؛ لأنها تنقل المعنى من سياقه التجريدي إلى صيغة تصويرية قادرة على الإقناع⁵، وقد أشار "ابن الأثير" إلى أن الكناية - شأنها شأن الاستعارة - تقوم على الطي والذكر؛ أي على مبدأ التعريض الذي يخلق مسافة دلالية تُنتج الإيحاء⁶، وهو ما يُظهر توحيد مفهوم الصورة في جوهرها الاستبدالي لديهم.

غير أن المؤلف ينتقل نحو مقارنة أكثر تفاعلية؛ حيث يؤكد أن مفهوم الاستبدال لم يكن مقتصرًا على التراث العربي، بل هو من المفاهيم المركزية في البلاغة الغربية، من أرسطو إلى ريكور (Paul Ricoeur)؛ حيث يرى هذا الأخير "أن الاستعارة تمثل تفاعلاً دلالياً بين عنصرين، وليست مجرد إحلال شكلي، وهذا ما يجعلها بنية ديناميكية تنتج معنى جديداً عبر التفاعل وليس عبر الاستبدال⁷، وبهذا تتحول الصورة من مجرد استبدال لفظي إلى عملية

¹- Ricoeur, Paul (1975), *lamétaphore vive*, éditions du seuil, paris, p.269.

²- ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص. 482.

³- ينظر، جابر عصفور (1992)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ص 255.

⁴- ينظر، الزمخشري (1968)، الكشاف عن حقائق التنزيل، دط، الدار العالمية، القاهرة، ص 131.

⁵- ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 485.

⁶- ينظر، ابن الأثير (1990)، المثل السائر، دط، تح: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ص 148-185.

⁷- Ricoeurpaul, op, cit, pp.221,238.

تخييلية تُجسد المعنى المجرد في هيئة محسوسة مُشكلةً نظاماً تفاعلياً حجاجياً يقوم على التخييل والتجسيد الحسي، والتأويل التداولي في انسجام مع المقصد القرآني الذي يجمع بين البيان والهداية.¹

3.1- مكونات الصورة القرآنية: المادة، الشكل، والوظيفة

تشكل الصورة القرآنية من ثلاثة مكونات متكاملة تتفاعل لإنتاج الأثر الحجاجي: المادة التصويرية، والشكل البلاغي، والوظيفة الحجاجية.

1.3.1- المادة:

يصنف "عبد الله صولة" مادة الصورة القرآنية إلى أربعة مجالات هي: المجال المنزوع من محسوس (الزراعي، الحيواني، التجاري) الذي يستثمر البيئة المألوفة للعرب، المجال الاجتماعي الذي يوظف العلاقات والشخصيات المعروفة، والمجال الثقافي الرمزي الذي يستثمر المعتقدات الشعبية، والرموز اللونية والاتجاهات، وتكمن الوظيفة الحجاجية لهذه المواد في تجسيد المعاني المجردة من خلال صور حسية مألوفة داخلية لدى متلقي القرآن من العرب في نظام قيمي عام ثابت الأركان، مما يجعلها "ما لا يجادل فيه" ويسهم في تحقيق الإقناع من خلال المشترك الثقافي والحسي.²

2.3.1- الشكل:

يصنف "صولة" الصورة الفنية في القرآن إلى خمسة أشكال رئيسية؛ يراها الأبرز تمثيلاً لتنوع التشكيل الصوري، على مستوى البنية يقترح نموذجاً تحليلياً يقوم على درجات متصاعدة في التعقيد: بسيطة تتجلى في التشبيه المجمل والبليغ اللذين يعتمدان على إعمال المتلقي كفايته الثقافية لتبين المسار الحجاجي، ومتوسطة تظهر في الاستعارة والكناية حيث يحدث الإضمار والكثافة، ومعقدة تتحقق في التمثيل القائم على تشابه العلاقة لا العناصر³، ويكشف هذا التدرج عن تنوع الآليات الحجاجية في الخطاب القرآني ومراتب تأثيرها.

3.3.1- الوظيفة الحجاجية:

¹ - ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 614-615.

² - المصدر نفسه، ص 496، 499، 543.

³ - ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 445، 449.

يؤكد "صولة" على وجود ترابط منطقي في طريقة حديث القدماء عن الصورة؛ إذ نظروا إليها بوصفها بنية استبدالية ذات غاية إقناعية وتأثيرية¹، فلما كانت عندهم "تعويضا للمعنى أو المفهوم وتصويرا له وتقديمه تقديمًا حسيًا"² كانت الغاية منها تبليغ ذلك المعنى في أحسن صورة. وجعل المخاطبين يقتنعون به من خلال الصورة الحسية³، ويميز "صولة" بين أنواع المجاز من حيث وظائفها: فالكناية تؤدي المعنى "مدعى ببيئة"، ومع الإفصاح بالذكر مدعى لا ببيئة⁴ بما يجعلها ذات بعد استدلالي غير مباشر في حين تُحدث الاستعارة التخيلية التي اعتبرها "ابن القيم" كثرة في القرآن- تخيلا برهانيا- يحرك الوجدان ويثبت الفكرة⁵، وهو ما يلتقي مع ما قاله "الجرجاني" من أن وظيفة التمثيل الإقناعية تقوم على الحضور⁶، وهذا يتماشى مع نظرية "بيرلمان" (Perelman) و"تيتيكا" (Tyteca) التي ربطت المجاز بالحضور بوصفه عاملا أساسيا في التأثير والإقناع⁷.

وهكذا تتحدد آليات الصورة الحجاجية في التجسيد الحسي للمعاني، وإعادة ترتيب الواقع في ذهن المتلقي لتكثيف البعد العاطفي، وربط الوظيفة بالمقام التداولي، وبذلك تنتقل الصورة القرآنية من آلية استبدالية زخرفية إلى أداة حجاجية قادرة على بناء المعنى والتأثير عبر التخيل، والتجسيد، والمقام التداولي محققة وظيفة مزدوجة: الإقناع العقلي والتأثير الوجداني.

4.1- وجوه الحجاج: آليات الإقناع والتأثير:

تمثل وجوه الحجاج في الخطاب القرآني البنية العميقة التي تُترجم مقاصده الإقناعية إلى ممارسات لغوية محسوسة، فهي ليست مجرد صيغ بلاغية، بل أدوات تداولية فاعلة تُسهم في بناء الموقف الحجاجي وتوجيه المتلقي نحو تبني الرؤية القرآنية.

¹ - ينظر، المصدر نفسه، ص 489.

² - جابر عصفور، المرجع السابق، ص 265-266.

³ - نقرة التهامي (1982)، الاتجاهات السنية والمعتزلة في تأويل القرآن، دط، دار القلم، دمشق، ص 215.

⁴ - السكاكي (1983)، مفتاح العلوم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 412-413.

⁵ - ابن القيم الجوزية (دت)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دط، إشراف لجنة تحقيق التراث، مكتبة الهلال، بيروت، ص 48.

⁶ - ينظر، الجرجاني، المرجع السابق، ص 299-300.

⁷ - Perelman et tyteca, op. cit, pp.155,157.

وتتنوع هذه الوجوه تبعاً لمقتضيات المقام فقد يتخذ الحجاج شكل حكم قيمة يُرسخ معياراً دينياً أو أخلاقياً، أو اعتراضاً يعيد النظر في تصور سابق، أو تعميم يوسع دلالة المثل لتشمل كل تجربة إنسانية، أو محل شاغر يستدعي استكمال الدلالة من قبل السامع فينخرط في العملية التأويلية، أو محل خلاف يُعاد فيه بناء الاتفاق على أسس معرفية أعمق تفتح المجال لحوار تداولي يرسخ الإقناع عبر الحجة والموازنة. كما يتجلى الحجاج كذلك في التناص الذي يعيد توظيف الأقوال والأنساق الثقافية السابقة في سياق جديد يمنحها دلالة برهانية.¹

ومن خلال هذا التنوع تتحول الصورة القرآنية إلى أداء حجاجي يتجاوز حدود الزخرف البلاغي، ليؤسس فكراً تداولياً يجعل اللغة القرآنية فعلاً موجهاً نحو الإقناع والتأثير وفق رؤية توازن بين العقل والوجدان.

2- المفاهيم التداولية والإجرائية للدراسة:

نعمد في هذه الدراسة مجموعة من المفاهيم التداولية الإجرائية التي تمثل أدوات تحليلية للكشف عن تحولات الأداء الحجاجي للصورة ضمن أفق "ما بعد بلاغة الصورة" وهذه المفاهيم تعرض بوصفها مداخل قرائية تنظم التحليل وتوجهه نحو استجلاء أبعاد الصورة التداولية، ووظائفها الإقناعية.

1.2- ما بعد بلاغة الصورة: تجاوز وتكامل.

يراد بمصطلح "ما بعد بلاغة الصورة" تجاوز التصور البلاغي التقليدي الذي حصر وظيفة الصورة القرآنية في بُعدها التزييني، وعلى الرغم من دور هذا التصور في إبراز الطابع الفني للنص، إلا أنه أغفل الدور التداولي للصورة في بناء الحجاج وتوجيه المتلقي، ومفهوم "ما بعد" هنا لا يعني القطيعة، بل تجاوزاً استيعابياً يدمج البعد الجمالي في أفق أوسع تتفاعل فيه العناصر البلاغية مع المقاصد التداولية للخطاب، فالجمال وسيلة للإقناع، وهذا الأخير يستمد قوته من جمالية التصوير.

وهذا التكامل بين الجمالي والحجاجي مستوحى من منهج "صولة" في قراءة الصورة القرآنية الذي يفرض الفصل بين الوظيفتين ويجعل منهما بنية متكاملة، وبناء عليه؛ تصاغ فرضية المقال: "الجمالي حجاجي، والحجاجي يحمل الجمالي"²، وبهذا تنتقل القراءة من

¹ ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 555-556.

² ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 578، 609-611.

البلاغة الوصفية إلى بلاغة تداولية تتعامل مع الصورة على أنها آلية حجاجية فاعلة توجه الفكر والوجدان معا.

2.2- الأداء الحجاجي: من المضمون إلى الفعل.

يُقصد بالأداء الحجاجي الطريقة التي تتحقق بها وظيفة الحجاج في الصورة من خلال مسار متدرج يشمل اختيار المادة التصويرية، وصياغتها بلاغياً (الشكل) ثم تحويلها إلى وظيفة حجاجية، وهذا يصبح الحجاج فعلاً تداولياً يدمج بين الإثارة الوجدانية والإقناع العقلي، فلا يُختزل في المضمون، بل يتجسد في فعل لغوي تداولي مؤثر.

3.2- تحولات الأداء الحجاجي: دينامية وتفاعل.

تحولات الأداء الحجاجي هي الدينامية التداولية التي تنتقل فيها الصورة من مستوى أولي إلى آخر أكثر تركيباً، عبر حركية تفاعلية من المرجع المحسوس إلى البناء البلاغي، ومن المشهد الجمالي إلى الحجة القيمية التي تُوجه المتلقي وتعيد تشكيل وعيه، وتكشف هذه التحولات أن قيمة الصورة لا تقف عند التزيين أو التمثيل، بل تمتد إلى صناعة حجة فاعلة تُحدث أثراً إدراكياً ووجدانياً عميقاً.

وانطلاقاً من هذه المفاهيم لا يهدف هذا الطرح إلى محاكاة منهج "صولة" الذي اكتفى بمعالجة عناصر الصورة بوصفها مكونات ثابتة في فصول مستقلة، بل يقترح منظوراً تداولياً مغايراً يدمج هذه العناصر ضمن سيرورة حركية (مادة- شكل- وظيفة- أثر)، وهذا تنتقل الصورة من البنية الثابتة إلى الدينامية التداولية في انسجام مع أفق الدراسة الموسوم "ما بعد بلاغة الصورة".

3- تحولات الأداء الحجاجي في الصورة القرآنية:

بعد التأسيس النظري والمنهجي تنتقل إلى مقارنة النص للكشف عن تجليات "ما بعد بلاغة الصورة" في خطاب يجعل الصورة أداة حجاجية لا مجرد زخرف، وتبني المقاربة على مسارين: الأول يحلل الصورة والثاني يتبع ديناميتها من الحسي إلى الرمزي.

1.3- المسار الأول: بنية الصورة الحجاجية:

1.1.3- المجال الزراعي: الآية: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: 265). تستمد الصورة مادتها من البيئة الزراعية: "الجنة، الربوة،

الوايل، الأكل (الثمار)" لترسم مشهدا حسيا يعكس علاقة البذل بالعطاء، لكنها تتجاوز التمثيل البصري إلى منطق برهاني؛ المؤمن المنفق مثل مزارع خبير اختار أرضا خصبة فأثمر زرعهُ أضعافا بينما يجف زرع المُرائي؛ لأن أرضه قاحلة.¹ يمثّل المشهد الزراعي حجة قيمية تُقنع بأن الإخلاص استثمار أخروي مضمون بينما الرياء خسارة محققة (النتيجة). في ضوء "ما بعد بلاغة الصورة" تتكامل الوظيفة الجمالية (المشهد الخصب) مع الوظيفة الحجاجية (الإقناع بفائدة الإخلاص)، من خلال حكم القيمة (الإنفاق الخالص راجح)؛ والتعميم؛ أي كل إنفاق مخلص يُضاعف، والاعتراض الضمني على الرياء. إذا تنتقل الصورة من الحسي الزراعي إلى القيمي الديني؛ لتصبح برهانا على أن الاستثمار في الآخرة هو الأضمن والأبقى.

*تحولات الأداء الحجاجي: الحسي الزراعي ← قيمي ديني.

2.1.3- المجال الحيواني: الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبَلُوا النَّوْزَةَ ثُمَّ مَنَحْمُلُوهَا كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ السَّفَرَاءَ بَيْسَ مَثَلِ الْفُؤَمَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: 5) تقوم الصورة على مفارقة عجيبة: حمار يحمل كتباً لا يفهمها، وعالم يحمل علماً لا يُترجم إلى عمل نافع، فالمادة الحيوانية (الحمار، الأسفار) تخلق تناقضا حسيا ساخرا ذا قوة إدراكية مباشرة؛ لكنه ضمنيا برهان قاطع على عبثية العلم الذي لا ينعكس في السلوك.²

وفي إطار "ما بعد بلاغة الصورة" يتجاوز التمثيل البعد التهكمي ليغدو احتجاجا ضمنيا على الانفصام بين المعرفة والالتزام عبر التعميم (كل علم دون عمل عبث)، وحكم القيمة (ذم واحتقار هذا الموقف). وعليه، تنتقل الصورة من الحيواني الحسي إلى القيمي الأخلاقي محققة علاقة وطيدة بين المحسوس والمجرد.

*التحول: الحيواني الحسي ← القيمي الأخلاقي.

3.3.1- المجال التجاري: الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَوَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي النَّوْزَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ (التوبة: 111). تعتمد الصورة الواردة في هذه الآية على استعارة تجارية شاملة "اشتري (البيع)"، "الجنة، (الثمن)"،

¹ ينظر، القرطبي (1964)، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ط2، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص 301.

² ينظر، المرجع نفسه، ج18، ص 96.

"بايعتم (العقد)"، "وعدا عليه حقا"؛ أي ضمان الصفقة. بمعنى أن المؤمنين هم بائعون وأن الله هو المشتري، والسلعة الأنفس والأموال، أما الثمن فهو الجنة، وهذا عقد إلهي موثق في الكتب السماوية مما يضيف عليه مشروعية كونية.¹

في أفق "ما بعد بلاغة الصورة" تتحول الصورة من تمثيل تجاري إلى حجة وجودية تؤسس لقيمة العطاء الإيماني بوصفه استثمارا رابحا عبر حكم القيمة (الجنة أفضل عوض)، والتناص يتمثل في الوعد المكرر في الكتب، وهكذا تنتقل الصورة من التجاري المادي إلى الإيماني الروحي ليصبح الإيمان صفقة العمر.

*التحول: التجاري المادي —————> الإيماني الروحي.

4.3.1- المجال الاجتماعي: الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: 10) تجسد الصورة الأخوة الإيمانية في صورة رابطة النسب، فـ"المؤمنون إخوة" استعارة؛ كأنهم إخوة بالدم، بما يترتب على ذلك من واجبات الإصلاح والتراحم، لكن التشبيه الضمني بين الإيمان والنسب يجعلها واجبا شرعيا وليس مجرد سلوك جيد.²

5.3.1- المجال الثقافي- الرمزي: الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (النور: 35). تقوم الصورة على تمثيل ممتد ومركب يربط النور المادي (المصباح في المشكاة) بالنور الرباني (الهداية) في تدرج تصاعدي:

المشكاة —————> المصباح —————> الزجاجة —————> الزيت المبارك —————> النتيجة "نور على نور"

هذا النسق الحسي /الرمزي يجعل الهداية متجسدة بوضوح كالنور المتدفق من مصدر واحد لا ينضب.³

في ضوء "ما بعد بلاغة الصورة" تتجاوز الصورة بعدها الوصفي المدهش لتصير برهانا رمزيا على وحدة المصدر الإلهي للحق عبر المثال الحسي (المصباح) الذي يقرب المجرد

¹ ينظر، الطبري (2001)، جامع البيان في تأويل أي القرآن، ج14، ط1، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ص 481.

² ينظر، المرجع نفسه، ج22، ص 300.

³ ينظر، ابن عاشور (1984)، التحرير والتنوير، ج18، دط، الدار التونسية، تونس، ص 214.

(الهداية) والتدرج (نور على نور) الذي يُعمق معنى الكمال، ومنه تنتقل الصورة من الرمز إلى البرهان القيمي (مصدر الهداية).

*التحول: الرمزي الحسي البرهان القيمي.

2.3- المسار الثاني: دينامية الصورة وتحولاتها الحجاجية.

1.2.3- من الزراعي إلى التجاري: التصوير في الآية: 265 (البقرة): يجسد القرآن الإنفاق في صورة جنة تؤتي أكلها ضعفين، المشهد زراعي؛ لكن المعنى الضمني تجاري محض (الثمرات المضاعفة تتحول إلى أرباح أخروية، والزراع يصبح تاجرا حكيما يختار أفضل الصفقات)؛ فالقرآن لا يصح "الإنفاق تجارة"، بل يترك المتلقي يستنتج ذلك في عملية إقناع أعمق.

2.2.3- من التجاري إلى الاجتماعي: الصورة في الآية: 111 (التوبة) يُشبه الإيمان بعقد بيع (اشترى من المؤمنين أنفسهم)، الخطابتجاري، لكن المضمون اجتماعي جماعي: ميثاق يربط الفرد بجماعته وبربه، وتتحول الصفقة الفردية إلى عهد جماعي، والبيع يصير التزاما بالتضحية.

3.2.3- من الاجتماعي إلى الرمزي: التصوير في الآية: 10 (الحجرات): المؤمنين إخوة تربطهم علاقة الإيمان فالخطاب هنا اجتماعي؛ لكن حين ننتقل إلى صورة الآية: 35 (النور) تتحول الأخوة الاجتماعية إلى وحدة نورانية كونية مصدرها النور الإلهي الواحد؛ أي أن المجتمع المؤمن لا يُبنى على رابطة دينية فقط، بل على مشاركة في نور رباني.

4.2.3- من الحيواني إلى الرمزي: الصورة في الآية 5 (الجمعة): يصور من حمل العلم ولم يعمل به كالحمار الذي يحمل أسفارا، المشهد حيواني ساخر يُجسد العبث؛ لكن عندما نضعه في مقابل النور (الآية 35) تتجلى ثنائية كونية: النور ضد الظلمة، الهداية ضد الضلال، فالحمار يرمز لظلمة الجهل رغم حمل العلم، والمصباح يرمز لنور الهداية الحقيقية.

5.2.3- البنية الشاملة: من الحسي إلى الرمزي الكلي:

تثبت هذه التحولات أن الصورة القرآنية تسير في تدرج تصاعدي؛ تبدأ من المحسوس المألوف عند المتلقي (الحيوان، التجارة، القرابة، الزرع) ثم تنتقل إلى القيمي الديني (الإيمان، الأخوة، الأخلاق، الإخلاص) وصولا إلى الرمزي الكوني (الهداية، النور، الحقيقة المطلقة)، وبذلك يمثل هذا الانتقال استراتيجية حجاجية تنقل المتلقي من عالم المحسوس المحدود إلى

آفاق المعنى الكوني الشامل في سيروية تداولية، تعيد صياغة التجربة الإنسانية ضمن نسق ديني كوني، ويمكن تلخيص مسار التحولات الحجاجية بين مجالات الصورة في:

1-المجال الزراعي(الثمرة) ← المجال التجاري(الريح) ←المجال الاجتماعي (العقد)←المجال الرمزي (النور الكوني).

2-المجال الحيواني (الانحطاط)المجال الرمزي (النور=الظلمة).

ختاماً، يمكن القول إن الصورة القرآنية ليست معطى بلاغياً جالياً فحسب، بل مكون جوهري من استراتيجية حجاجية تدمج الجمال بالإقناع، فقد كشف المسار الأول عن بنية الصورة المستمدة من الواقع المعيش، وشكلها البياني المتنوع، ووظيفتها الجمالية التي تتكامل مع البعد الحجاجي. كما أظهر المسار الثاني دينامية الصورة في انتقالها من المحسوس إلى الرمزي في سيروية تداولية تُعيد صياغة التجربة الإنسانية.

وهذا يجد مفهوم "ما بعد بلاغة الصورة" سنده المرجعي في الخطاب القرآني؛ حيث تتحرك الصورة من الحسي إلى القيمي، ومن الجزئي إلى الكلي، وتؤدي وظيفة حجاجية مزدوجة تقوم على الإقناع العقلي والتأثير الوجداني في انسجام تام مع المقصد القرآني الذي يجمع بين الجمال والحجة.

4- قراءة نقدية في مقاربة "عبد الله صولة": إنجازات وحدود.

يعد مشروع "صولة" في كتابه " الحجاج في القرآن" محاولة رائدة لتطبيق نظريات الحجاج الحديثة على النص القرآني، وقد شكل هذا المشروع منعطفاً مهماً في الدرس البلاغي العربي الحديث؛ إذ سعى إلى مقاربة القرآن بوصفه خطاباً إقناعياً غير أن هذا الجهد لا يخلو من تساؤلات نقدية حول مدى اتساقه النظري، ودقته المنهجية، وضبطه الاصطلاحي.

1.4-التحول الحجاجي في مقاربة الخطاب القرآني: بين التنظير والتطبيق

نجح المؤلف في أن يحول دراسة البلاغة القرآنية من المنهج الوصفي الذي يركز على جمالية النص إلى المقاربة الوظيفية التي تجعل فعالية الخطاب محورا لاهتمامها، واستند في ذلك إلى نظرية "بيرلمان وتيتيكا" التي تعتبر الخطاب عملية حجاجية تهدف إلى الإقناع عن طريق توظيف القيم المشتركة بين المتكلم والمخاطب.¹

¹- Perelman, et tyteca, traité de l'argumentation la nouvelle rhétorique, op, cit, p.5.

بهذا التصور قدم "صولة" قراءة جديدة للقرآن بوصفه خطابا يسعى إلى تغيير الوعي والسلوك من خلال حجاج يقوم على "المواضع الثقافية (الرموز والمعاني المتجذرة في الثقافة) والتي تُستدعى لتقوية الحجة. كما يَبَيِّن أن الصورة القرآنية ليست عنصرا للترتين فحسب، بل أداة إقناعية تُفَعِّل الحس الجمالي لخدمة المعنى التداولي¹.

2.4- إشكالية المصطلح والمفاهيم:

من أكثر التحديات التي يواجهها المشروع الصولي المرونة والاضطراب الاصطلاحي؛ فهو لا يقدم تعريفا إجرائيا محددا للصورة القرآنية، ويتردد بين مصطلحات عديدة مثل: "الحجاج والاحتجاج"، و"الصورة، الصورة القرآنية"، "الصورة الفنية"، "الصورة الحجاجية"، "المواضع الثقافية، المواضع المشتركة" دون تحديد الفروق الدلالية الدقيقة بينها، مما يخلق غموضا تمييزيا بين المستويات البلاغية والتداولية والحجاجية، إضافة إلى افتقار بعض المفاهيم؛ مثل: "الحجاج، الصورة إلى الضبط"، فيفقد المصطلح دقته الإجرائية². ويبدو أن غياب معجم مفاهيمي دقيق جعل المشروع يميل إلى مرونة مفرطة-في بعض المواضع- تسهل القراءة التأويلية لكنها تُضعف الصرامة العلمية، فالحاجة ماسة -في رأينا- إلى ضبط المصطلحات وتحديد العلاقة بين "البيان والصورة والحجاج" في إطار نسقي واضح.

5-التقويم والآفاق:

إن المآخذ السابقة لا تقلل من القيمة التأسيسية والمعرفية لمقاربة "صولة" في تجديد الدرس البلاغي؛ إذ أسس أرضية للحوار المنهجي بين البلاغة العربية والمناهج التداولية الحديثة مؤكدا بذلك أن الخطاب القرآني خطاب تواصلي إنساني قائم على الإقناع. لكن تطوير هذه المقاربة يقتضي "نظريا"؛ بناء إطار حجاجي خاص بالنصوص الدينية يراعي خصوصيتها، و"تطبيقيا"؛ توظيف أدوات التحليل اللساني والتداولي، واصطلاحيا؛ وضع معجم دقيق يحدد المصطلحات ويحول دون تداخلها وغموضها. وعليه، فالقيمة الجوهرية لرؤية "عبد الله صولة" تكمن في جرأتها المعرفية التي فتحت أفقا جديدا للتفكير في النص القرآني بوصفه خطابا حيا متجددا موجها للإنسان،

¹ - ينظر، عبد الله صولة، المصدر السابق، ص 527، 530.

² - ينظر، المصدر نفسه، ص 481، 482، 488.

ومحكما في حجته وإقناعه. إلا أن استثمار هذا المنجز يتطلب أدوات علمية دقيقة لفهمه وجهدا نقديا تراكميا لتطوير مقارنته وتجاوز حدوده.

6-الخاتمة:

كشفت هذه الدراسة أن المقاربة الصولية لبلاغة الصورة في القرآن مثلت تحولا نوعيا في الدراسات البلاغية المعاصرة؛ إذ تجاوزت النظرة التزينية لترتقي بالصورة إلى أداة تداولية حجاجية تفاعلية، ورغم الإسهامات القيّمة لهذه المقاربة لم تتمكن من تجاوز التجزيئية التحليلية، الأمر الذي أوجب البناء عليها والانتقال إلى مستوى تحليلي آخر يراعي دينامية الصورة في سياقاتها المتعددة.

وإزاء هذا القصور المنهجي سعى المقال إلى تقديم منظور "ما بعد بلاغة الصورة" الذي يتعامل مع الصورة بوصفها آلية حجاجية ديناميكية وظيفتها توجيه الفكر والوجدان، وقد توصلنا إلى النتائج الآتية:

-الصورة القرآنية ليست بنية ثابتة، بل سيرورة حجاجية دينامية تتفاعل مع سياقات التلقي المختلفة، وتنتقل من الحسي إلى الرمزي عبر تحولات الأداء الحجاجي لأداء وظائف إيمانية وقيمية.

-دراسة الصورة كوحدة متكاملة (المادة، الشكل، الوظيفة) في مسار واحد أكثر جدوى من التحليل التجزيئي (الفصل بينها)؛ إذ تكشف عن التفاعل الجدلي بين مكوناتها وتبرز الانتقال من المرجع المحسوس إلى الأثر الحجاجي.

-بيّن تحليل نماذج قرآنية مختارة من حقول متنوعة: زراعية، تجارية، حيوانية، ثقافية. رمزية، واجتماعية قدرة الخطاب القرآني على التوظيف التحويلي للصورة؛ حيث يتحول المشهد الحسي إلى حجة تقنع العقل، وتحرك الوجدان معا في تفاعل مستمر بين الجمالي والإقناعي.

إجمالا، حاولت هذه الدراسة قراءة الصورة القرآنية ضمن رؤية حجاجية تفاعلية، تُوازن بين بعدها البلاغي ووظيفتها التداولية، وقد أظهرت القراءة قدرة الصورة على بناء المعنى وتحقيق التأثير في مسار الخطاب، وهو ما يحفز على إجراء دراسات أخرى تستقصي أبعادها التداولية والحجاجية.

-قائمة المصادر والمراجع:

*-القرآن الكريم برواية ورش.

أولاً: المراجع العربية:

- 1- ابن الأثير (1990)، المثل السائر، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- 2- الجرجاني، عبد القاهر (1952)، دلائل الإعجاز، ط5، تصحيح ونشر محمد رشيد رضا، دار المنار، مصر.
- 3- جابر عصفور (1992)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء.
- 4- الزمخشري (1968)، الكشاف عن حقائق التنزيل، الدار العالمية، القاهرة.
- 5- السكاكي (يوسف بن أبي بكر) (1983)، مفتاح العلوم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 6- صولة عبد الله (2007)، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي، بيروت.
- 7- الطبري (محمد بن جرير) (2001)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ط1، ج14، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
- 8- ابن عاشور (1984)، التحرير والتنوير، ج18، الدار التونسية، تونس.
- 9- القرطبي (1964)، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج3، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- 10- ابن القيم الجوزية (دت)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، إشراف لجنة تحقيق التراث، مكتبة الهلال، بيروت.
- 11- نقرة التهامي (1982)، الاتجاهات السنية والمعتزلة في تأويل القرآن، دار القلم، دمشق.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- 12-Austin,john(1970)‘ Quanddire,c’estfaire,par Gilles lane,Éditions du Seuil,paris,
- 13-Emile Benvenist(1966), problèmes de linguistique générale, Éditions Gallimard paris,
- 14-Perelman et lucieOlbrechtstyteca (1992)‘ traité de l’argumentation la nouvellerrhétorique, 5ed,éditions de l’université de Bruxelles.

ما بعد بلاغة الصورة: تحولات الأداء الحجاجي في الخطاب القرآني
قراءة تداولية نقدية في كتاب "الحجاج في القرآن" لعبد الله صولة

15- Ricoeur, Paul, (1975) la métaphore vive, éditions du seuil, paris.

